قراءة في ومضة اغتيال لعصام الشريف

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه المقالة القصيرة ومضة "اغتيال للقاص المصري عصام الشريف، وهي ومضة تحتاج إلى التوقف أمامها كثيرا فالموحى به فيها أكثر من المصرح به بكثير وكأننا أمام عالم متكامل من الصراعات النفسية والاجتماعية والإنسانية. ها هو نص الومضة:

اغتيال

اعتدتُ نظرة ضحاياي الشاردة، هذه الضحية قتلتني نظرتها بينما أغتال حلمها.

شرود الضحايا السابقين أثناء اغتيال أحلامهم واحدا تلو الآخر جعل الراوي يعتبر هذا الشرود جزءا طبيعيا من عملية الاغتيال التي يقوم بها. ويوحي لنا ذلك بنظرة عميقة إلى مفهوم الشر والقبح في حياتنا، فعندما نمارس شيئا شريرا أو قبيحا ونكرره ولا نجد في رد فعل من نقوم بمارسته عليهم أو ضدهم شيئا يصدنا، نعتاد على هذه

الممارسة أو هذا السلوك، وهو اعتياد يجعلنا نستمرئ تصرفاتنا السيئة ولا نجد فيها شيئا شاذا أو غريبا.

وكلمة الاغتيال ذاتها تدخل الومضة في نطاقات أكبر مما يبدو على سطحها، فالاغتيال يكون للسياسيين والمفكرين والمتميزين خاصة ممن يحقد عليهم أو يعارضهم في السلوك أو الاتجاه أو النظرة للحياة أو ممن يفتقد ما لديهم. وفي الغالب يكون الاغتيال مصحوبا بغفلة الضحية وعدم وعيها بأن هناك أحدا يترصدها أو يريد أن يقضي عليها. وعندما يقترن هذا الاغتيال بالأحلام هنا، ربما يكون الراوي صديقا لمن يغتال أحلامهم أو مسئولا عن أمورهم بشكل أو بآخر، وكأنه يتسلل إلى أحلامهم أو يتعرف عما يكشفون عنه له من تطلعات ليفسدها في مهدها أو يدمر قواعدها، وكأن الراوي سوسة تنخر في عظام مجتمع بأكمله.

وتعمد الراوي اغتيال الأحلام دون اغتيال أصحابها يوحي بأن الراوي يحاول أن ينزل بسقف الطموحات لدى الشخصيات/الضحايا إلى حده الأدنى، كما أن الحلم الذي يغتاله الراوي في كل ضحية أكبر من الراوي ذاته وكأن هذا الراوي ناقم على كل من له حلم يسعى لتحقيقه أو كأنه يسعى بحرص لأن يجعل كل شخصية "شريرةً" مثله

بلا حلم، وكأنه هو شخصيا عجز عن تحقيق حلمه فأراد أن يجتث كل حلم لأي شخص آخر.

وبعد هذا الاعتياد وهذه الآلية في الاغتيال، يُفاجأ الراوي بنظرة مغايرة ربما تخلو من الشرود وربما وجد نفسه في الضحية ونظرتها وكأنه اكتشف أنه يغتال نفسه باغتيال هذه الضحية، وكأن نظرة هذه الضحية تجسد كل نظرات الضحايا السابقين وكأن هذه النظرة ومضة في حد ذاتها تكثف كل لحظات الاغتيال السابقة وتفرّغ النظرات السابقة من شرودها ليسقط هذا الوميض الكاشف على لاوعي الراوي ووعيه على حد السواء ويجعله يكتشف فظاعة ما يفعله.

ويستعمل الراوي "هذه" التي تدل على الإشارة للقريب زمانا ومكانا هنا وكأنه يكتشف فداحة اغتيالاته في نفس اللحظة التي يغتال فيها حلم الضحية التي من الواضح أنها ستكون أخيرة، لأن نظرة هذه الضحية قتلت الراوي معنويا على الأقل: أي أنها قتلت فيه ما يقوم به من اغتيال، وكأن هذه النظرة هي المقصلة أو القاضي أو الحَكَم الذي يصدر حكما نهائيا على الراوي.

ومن الواضح أن هذه الومضة عبارة عن لقطة من حدث أكبر يشير الراوي إليه من خلال الاعتياد في بداية الومضة وكأننا أمام

ومضة مستنبطة من رواية جريمة أو رواية تتوغل في خبايا الشر داخل النفس البشرية وقام الراوي بالتوقف عند لحظة تحول الحدث في هذه الراوية وأبرزها لنا في ومضة رائعة.

بالنسبة للحدث في هذه الومضة، لسنا أمام مجرد سرد لحدث. فالومضة هنا تقدم لنا لحظة دالة من حدث أكبر يمتد قبلها في الزمن بكثير واستحضره الراوي هنا من خلال التأكيد على اعتياده اغتيال أحلام أشخاص آخرين. ومن هنا نكون أيضا أمام شخصية مركبة ولها بعد نفسي كبير تكثفه اللحظة التي أمامنا وتوحي بتوغل الشر واغتيال الأخلام في شخصية الراوي. ومن هنا يمكننا أن نستشف أن الومضة بوجه عام تستحضر في خلفيتها أحداثا سابقة بين الشخصيات حتى لو كانت هذه الشخصيات/الضحايا هنا مختلفة، ولكنها تشترك في الأحلام على أية حال، أي أنها كلها تتقاسم رحابة الحلم والسعي نحو تحقيق التطلعات ويأتي الراوي هنا بمثابة عائق أمام هذه الأحلام والتطلعات أو خصم لها يسعى للقضاء عليها.

وبالنسبة للزمن، يركز الراوي على لحظة فارقة في حياته، فالومضة هنا مروية بضمير المتكلم، وهذه اللحظة ليست منفصلة عن اللحظات السابقة عليها، ولكنها تتصل بها اتصالا وثيقا لأنها تكشف لنا عن تاريخ الشخصية/الراوي مع الاغتيال. ولكن هذه اللحظات السابقة

obeikandi.com

لا تحضر بذاتها في الومضة، الأمر الذي قد يجعل الومضة قصة قصيرة أو تلخيصا لحدث، وإنما تحضر من خلال الفعل "اعتدتُ" الذي يوحي بتكرار الحدث من قبل وبتكرار لحظات وتجارب مماثلة، ولكنه فعل أيضا يوحي بأن الراوي سيمر بنقطة تحول تُخرجه من هذا الاعتياد، فلو سردت لنا الومضة نفس الحدث المتكرر من قبل دون تحول لن نكون أمام ومضة، إذ أن وعي الراوي في هذه الحالة سيكون ثابتا دون أن يطاله تحول أو تبدل أو تغيّر، ولذلك يسلط الراوي الضوء على لحظة تحول في هذا الحدث المتكرر، ولحظة التحول هذه هي ما تحدثنا عنه سابقا بأن الومضة تلتقط لحظة فارقة في حياة الشخصية، فارقة بمعنى التحول والتميز عن اللحظات الأخرى المشابهة أو غير المشابهة.

operikandi.com